



القيم.. من الفكر الفلسفي إلى البحث السوسيولوجي

فخار إبراهيم

شعبة علم الاجتماع، قسم العلوم الاجتماعية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية،

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان.

حي 32 مسكن بلغنم / ص. ب رقم 43 - 47009 غرداية.

fekharbrahim@gmail.com

ملخص -

يهدف المقال إلى دراسة موضوع "القيم"، منذ ميلادها من رحم الفلسفة مجردة في عالم المثل. واقتصر تناولها في البداية من طرف الفلاسفة الذين اعتبروها أحد المباحث الأساسية بالإضافة إلى مبحثي الوجود والمعرفة، وقسموها من منظورهم إلى ثلاثة أقسام تضبط سلوكيات الأفراد وتحدد اتجاهاتهم وهي: الخير والحق والجمال. ثم تجرأ علماء النفس والاجتماع على تناولها بالدراسة والتحليل بكثير من الحذر، كونها مفهوما مجردا مطلقا من جهة، ولغموضه وصعوبة دراسته العلمية من جهة أخرى؛ مع إشكالية الوقوع في "حكم القيمة" من طرف الباحث حين يتأثر بمنظومته القيمية الخاصة. ومع انغماس القيم في كافة مجالات الحياة الاجتماعية أضحى الاهتمام بها يتزايد، خاصة مع تعقد الحياة في المجتمعات الحديثة التي تشهد اتساعا رهيبا لمساحة العولمة، وتنامي النزعات الثقافية المحلية، الأمر الذي يجعل دراسة موضوع القيم مثيرا ومتجددا. ويبقى التساؤل مستمرا: القيم إلى أين؟

الكلمات المفتاحية -

القيم، الفلسفة، الدراسات النفسية، الدراسات الاجتماعية، ابن خلدون، العولمة.

Values.. From Philosophical Thought To Sociological Research

Summary -

This Article Studies The Topic Of "Values", From Their Inception In The Core Of Philosophy, Abstract In A World Of Ideals. It Was Initially Studied Only By Philosophers Who Considered It To Be One Of The Basic Research Topics In Addition To Existentialism And Knowledge. This Topic Was Divided From Their Perspective Into Three Sections That Regulate The Individuals' Behaviour And Determine Their Tendencies Which Are Goodness, Integrity And Beauty. Then, Sociologists And Psychologists Dared Try To Study Them With Much Caution Because Their Concept Is Absolutely Abstract On The One Hand And The Ambiguity And Difficulty Of Their Scientific Study On The Other Hand, In Addition To The Problematic Of Falling In The "Value Judgment" Of The Researcher When He Is Affected By Its Own Values. When Values Infiltrated All The Spheres Of Social Life, Being Aware Of Them Has Grown More And More, Especially With The Complexity Of Life In Modern Societies Which Is Facing An Alarming Expansion Of The Area Of Globalization And The Growing Of Local Cultural Concerns. This Makes The Study Of The Subject Of The Values Exciting And Renewable And The Question: Remains Current: "Values: Where To?"

Keywords -

Values, Philosophy, Psychological Studies, Social Studies, Ibn Khaldoun, Globalization.

مقدمة -

إنّ تناول موضوع "القيم" بالبحث والدراسة ليس بالأمر الميسور والسهل، كما قد يتخيَّله البعض، وهذه الصعوبة تكمن في غموض القيم من جهة، واختلاف المفكرين والعلماء في معناها، وتباين نظرتهم إليها من جهة أخرى؛ وهذا الاختلاف في تحديد مفهومها لم ينشأ بسبب طبيعة اختلاف المعنّيين بها والتي تشمل جوانب معرفيّة متعدّدة، أهمّها الفكر الفلسفيّ وعلم النفس وعلوم التربية وعلم الاجتماع فحسب، وإنّما نلاحظ هذا الاختلاف موجودا حتى بين الباحثين في المجال المعرفيّ نفسه.

إنّ دراسة القيم ليست شيئاً جديداً في ميدان المعرفة، فقد لقيت عناية واهتماماً كبيرين من رواد الفكر الفلسفيّ، وأقطاب الدراسات الأخلاقية القدماء والمعاصرين، ومع ذلك فمصطلح "القيم" بالمعنى المتداول الآن لم يستعمل إلا في الدراسات الحديثة، حين استقطب اهتمام علماء النفس والتربية وعلم الاجتماع. في هذا المقال نسلط الضوء على موضوع "القيم" بتحديد مفهومها، ومحاولة الإلمام بمعانيها المختلفة، وعرض أبعادها ودلالاتها المتعددة، وتتبع مسارها من خلال بعض الدراسات الفلسفية التي كان لها السبق في تناولها، ثم التعرّض لبعض الدراسات النفسية والاجتماعية التي انتقل إليها الاهتمام بها بعد ذلك.

• مفهوم القيم -

كلمة "القيمة" *valeur* من الكلمات الشائع استعمالها، فهي كثيرة التردد على ألسنة المفكرين والتربويين والمتقنين بل حتى عامة الناس، ومع هذا الشيوع والتداول الواسع تحتفظ بكثير من الغموض، وتبقى استعمالاتها فضفاضة كثيرة المرونة، وهذا التضارب والغموض الذي يكتنف موضوع القيم جعل عالم الاجتماع ألفين توفلر (A. Toffler) يصف القيم بأنها: "الطفل غير السعيد الذي يعاني من بؤس وشقاء عدم علمنا به"¹، في حين عبّر فون مرنج (V. Mering) عن ذلك قائلاً: "هناك في ميدان البحوث في القيم على وجه الخصوص جذب في النظريات المتناسقة وخصب في النظريات المتضاربة"².

1- القيم في اللغة:

- القيم: جمع كلمة "قيمة"، وهي مشتقة من الفعل الثلاثي "قام"، ومن مادة "قَوَم".
- الفعل "قام": اعتدل، ظهر واستقرّ، دام وثبت، تولى الأمر، تحدّث قيمته.
- القيمة: القدر، الثمن، الثبات والدوام.

¹ ضياء زاهر، القيم في العملية التربوية، مؤسسة الخليج العربي، (دم)، 1984، ص10.

² الموضوع نفسه.

- القيم: السيد، سائس الأمر، الذي يقوم بشأن القوم، المستقيم، ذو القيمة¹.

يلاحظ أن مفهوم "القيمة" بالمعنى المتداول الآن لم يكن مستعملاً قديماً وإنّما هو مصطلح حديث دخل اللغة العربية عن طريق ترجمة المصطلح الأجنبي: *valeur*، فاستخدمه الباحثون والمفكرون مع اختلاف في تحديد دلالاته. إلّا أننا نجد في تلك التعاريف اللغوية ما نعدّه مرتبطاً بمفهوم "القيمة" أو "القيم"، فيتفق إلى حدّ بعيد مع ما ذكره الباحثون واعتمدوه في دراساتهم. فقد أشار علماء اللغة في تعريف القيمة إلى معنى الثبات والدوام، وهو ما أكده الباحثون من خصائص القيم، كما أنها تحمل معنى السياسة والقيادة، حيث أنّ القيم - حسب علماء النفس والاجتماع- هي التي توجّه سلوك الأفراد وتتحكّم في مسار المجتمعات.

ولعلّ استعراضنا دلالات المفهوم الاصطلاحي للقيم وتطوّره عبر الزمن لدى عدد من الدراسات الفلسفيّة والنفسية والاجتماعية يوضّح أكثر الجوانب التي تلتقي فيها هذه المعاني اللغوية مع تلك الدراسات باتجاهاتها المختلفة.

2- القيم في الدراسات الفلسفية:

بقي موضوع القيم - إلى عهد قريب- مقتصرًا على الفلاسفة، نظراً لكونه مفهوماً مجرداً مطلقاً من جهة ولغموضه ولصعوبة دراسته العلمية من ناحية أخرى؛ وتعدّ القيم أحد المباحث الأساسية التي اهتمّ بها الفلاسفة قديماً وحديثاً، بالإضافة إلى مبحثي الوجود والمعرفة، وهي من المفاهيم الفلسفية التي كانت ومازالت محورا لخلافات أساسية بين المدارس الفلسفية، وفي هذا يقول جون ديوي (J. Dewey) "إن الآراء حول موضوع القيم تتفاوت بين الاعتقاد من ناحية بأنّ ما يسمّى "قيماً" ليس في الواقع سوى إشارات انفعالية أو تعبيرات

1 إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، 1972، ط2،

صوتية وبين الاعتقاد في الطرف المقابل بأن القيم والمعايير ضرورية ويقوم على أساسها كل من الفن والعلم والأخلاق¹.

والقيم في المنظور الفلسفي تنقسم إلى ثلاثة أقسام تضم تحتها شتى المعاني التي تضبط سلوكات الإنسان وتحدد اتجاهاته في حياته، وهي: الخير والحق والجمال، ومقابل ذلك تأتي الأوجه الثلاثة المؤطرة لحياة الإنسان الواعية متمثلة في: الإدراك والسلوك والوجدان.

فالإدراك ينبغي أن يكون صحيحا لا مغلوطا، مصيبا لا مضللا حتى ينبني السلوك على أساس سليم؛ وهنا تبدو قيمة "الحق" المقابلة للإدراك، فالإنسان بفطرته ينشد الحق ويبني عليه معارفه.

أما السلوك فيقيس الإنسان صوابه واستقامته بمقياس "الخير" الذي هو قيمة ضرورية عنده، ليس له عنها غناء، حتى وهو يقترب الإثم أو يفعل الشر؛ هاتان قيمتان -حسب الفلاسفة- تمليهما على الإنسان فطرته: قيمة "الحق" كإدراك، وقيمة "الخير" كسلوك.

أما القيمة الثالثة: "الجمال" فهي حلقة وسطى بين الإدراك من ناحية والسلوك من ناحية أخرى، وهي ما يطلق عليه بالنشوة الجمالية، أو الحالة الوجدانية، وبغية المرء من خلال هذه الحالة أن تشيع فيه الطمأنينة والرضا، فتراه على هذا الأساس يختار ثيابه ومسكنه ومقتنياته².

وقد تطور البحث الفلسفي في هذه القيم الثلاثة، ليصبح ثلاثة مباحث فرعية، شبه مستقلة، وهي: المنطق والأخلاق والجمال، وهي تعدد علومها معيارية تبحث فيما ينبغي أن يكون، وليست علومها وضعية تقتصر دراستها على البحث فيما هو كائن.

وينقسم الفلاسفة بصفة عامة حول ما إذا كانت القيم تحدد بمعزل عن خبرة الناس بها في الحياة الواقعية، أم أنها ناتجة عن خبراتهم وتجاربهم إلى

1 محمد عماد الدين إسماعيل وآخرون، التنشئة الاجتماعية للطفل في الأسرة العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1982، ص 223.

2 زكي نجيب محمود، فلسفة وفن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1963، ص 65.

قسمين وهذا بعد أن نستبعد بعض أصحاب المنهج الوضعي الذين حذفوا موضوع القيمة من دراساتهم وعدّوها مجرد إيماءات أو تعبيرات انفعالية عارضة. ويعدّ العالم النمساوي شليك (M. Schlick) مؤسس هذه الحركة الفلسفية وأول من دعا إليها ضمن جماعة من الفلاسفة أطلقت على نفسها جماعة "فيينا"¹.

أما القسمان الرئيسيان فهما:

- اتّجاه الفلسفات المثالية أو العقلية.
- اتّجاه الفلسفات الواقعية الطبيعية.

أ- اتّجاه الفلسفات المثالية:

اقترن الاتّجاه المثالي بالفلاسفة القدماء أفلاطون (Platon) وسقراط (Socrate) ويمثلها ضمن الفلاسفة المحدثين كانط (E. Kant) وهيجل

(F. Hegel)، أمّا في عصرنا المعاصر فترتبط بكل من كروتشه

(B. Croce) و جنتلي (C. Gentile)، ويعدّ هؤلاء فلسفتهم هذه نظرية كاملة للكون والحياة، التي تقوم على أساس الاعتقاد بوجود عالمين أحدهما مادي والآخر معنوي (سماوي)، وإنّ الإنسان الكامل يستمدّ قيمه من عالم السماء².

أمّا موقف الفلسفة المثالية العقلية من موضوع "القيم" فيقوم على أساس استقلال القيم، وانعزالها عن الخبرة الإنسانية، وهي بالتالي خارجة عنه وثابتة لا تتغيّر، لذلك - مثلاً - يمكن النظر إلى فلسفة أفلاطون على أنها تركز على ما يجب أن يكون، وما لا يجب أن يكون. ويرى أفلاطون أنّ مصدر القيم خارج عن الحياة الواقعية والخبرة الشخصية للإنسان، تلك الخبرة التي تشتقّ من هذا العالم الحسي المتغيّر والمتقلّب، لذلك يتحتّم أن يكون مصدر القيم هو عالم المثل السماوي الذي يمتاز بأنّه عالم أبديّ ثابت ومطلق.

1 محمد أحمد على الحاج، فلسفة التربية، دار المناهج، عمّان، الأردن، 2002، ط1، ص 40-41.

2 صلاح نصرة، نظرية القيم في الفكر المعاصر، دار التنوير، بيروت، لبنان، 1984، ص32.

ويرى الفيلسوف كانط أن مصدر كل من العلم أي الحق، والخير أي الأخلاق وكذلك الجمال هو العقل؛ ذلك لأن العقل هو الذي يعطي للخبرات الحسية شكلها الخاص الذي ندركه، حيث أن التركيب الداخلي للعقل يحتوي على مفاهيم هي مقولات الفكر، وهذه المفاهيم موجودة في العقل وجودا مستقلا عن الخبرة، وسابقا لها¹.

ب- اتجاه الفلسفات الواقعية:

اعترض الفلاسفة الواقعيون على منطلقات الفلسفة المثالية: واختلفوا معها اختلافا جذريا، فرفضوا أن يكون للقيم مكان خارج حدود الطبيعة والعالم الواقعي، أي عالم التجربة والخبرات اليومية.

ويمثل كل من أرسطو (Aristote) و هوبز (T. Hobbes) وغيرهم من الفلاسفة الواقعيين مثل بيرى (J. Perry) و هولت (J. Holt) تصوّرات هذه الفلسفة التي ترى أن قيم الأشياء ناتجة عن اتّصالنا بها وتفاعلنا معها وأنّها لا تنشأ في الفراغ، وهي بذلك ليست مجردة مطلقة ولا ثابتة أبدية. ومن هنا فإن أصحاب هذا الاتجاه يرون أن الأشياء ليست في ذاتها خيرا أو شرا، حقا أو باطلا، صحيحة أو خاطئة وإنما هي أحكام نصدرها من واقع تأثّرنا بها وتأثيرنا فيها، والقيمة عند هؤلاء هي القرار الذي يصدره الإنسان بالنسبة لأمر ما، بناء على منظومة من المبادئ والمعايير التي تميّز بين الجوانب القيمية الثلاثة التي تشملها الخبرة الإنسانية وهي: الحق والخير والجمال، كما تعلمها وتفاعل معها ومن هذه الزاوية يتّضح التقاء مفهوم القيمة مع مفهوم الخبرة الإنسانية مما يعني أن مجال القيم لدى هؤلاء يشمل كافة جوانب النشاط الإنساني².

يقول الفيلسوف أوجان نيدا (E. Nida): "إن قيمة جرس الحرية في أمريكا لا تتوقّف على صفات ذاتية فيه، فهو من هذه الناحية ذو قيمة نافهة لا تكاد تذكر، لأنّه جرس قديم مشروخ ولا يساوي شيئا، ومع هذا فهو لا يقدر

1 مساعد بن عبد الله المحيا، القيم في المسلسلات التلفازية، دار العاصمة، الرياض، م.ع.س، 1994، ص33.

2 المرجع نفسه، ص34.

بثمن، وله قيمة عالية كبرى في نظر الأمريكيين، لأنه رمز الحرية التي يقدسونها¹.

وقبل أن نتعرض لمفهوم القيم في الدراسات النفسية والاجتماعية، نشير بإيجاز لنظرية الفيلسوف الأمريكي رالف بارتون بري (R.B.Perry) المعروفة بالنظرية العامة للقيمة التي تتخذ مفهوم "الاهتمام" محورا وأساسا لتفسير القيمة ومحتوى هذه النظرية أن أي اهتمام بأي شيء يجعل هذا الشيء ذا قيمة، فالاهتمام في رأيه يعدّ ينبوع الأصلي والسمة المميزة، والخاصية الدائمة في جميع القيم، ويختصر فكرته في المعادلة البسيطة التالية:

س ذو قيمة = هناك اهتمام بـ س².

ذلك هو - باختصار - مفهوم القيم لدى الفلاسفة، وتلك هي نظرتهم لها، وتجدر الإشارة إلى أن الفلاسفة المتأخرين والمعاصرين، اعتمدوا كثيرا الاتجاه الطبيعي في دراساتهم للقيم، كما أن الدراسات النفسية والاجتماعية انطلقت من الاتجاه نفسه.

3- القيم في الدراسات النفسية:

تعدّ القيم من أهمّ الموضوعات التي تعنى بها الدراسات والبحوث النفسية في الوقت الحاضر، وذلك لارتباطها بعدة نواح نظرية وتطبيقية من ميدان علم النفس، خاصة منها علم النفس الاجتماعي والتربوي وحتى الإكلينيكي. والفضل في دراسة القيم سيكولوجيا يعود إلى باحثين اثنين من علماء النفس، الأول: هو السيكلوجي الألماني إدوارد سبرانجر (E. Spranger) الذي قدّم عام 1928م كتابا بعنوان: "أنماط الرجال"، بيّن فيه أن الناس يتوزعون بين ستة أنماط تبعا لسيادة واحدة من القيم التالية: النظرية، الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، الجمالية، الدينية؛ والثاني: هو السيكلوجي الأمريكي لويس ليون ترستون (L.L.Thurstone) الذي نشر عام 1954م مقالا بعنوان: "قياس القيم - منظور سيكولوجي"، قدّم فيه تصوّرا لمعالجة القيم في إطار البحث العلمي

1 فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ط2، ص35.

2 المرجع نفسه، ص36.

النفسيّ، ثمّ توالى بعد ذلك بحوث لدراسة القيم وخاصة ضمن موضوعات علم النفس الاجتماعي¹.

ويرى علماء النفس أنّ هناك ارتباطا وثيقا بين القيم والشخصيّة، فإذا عرفنا قيم الشخص عرفنا شخصيته، لأنّ قيم الفرد تمثّل إحدى المحدّات الهامّة لسلوكه. و"التنظيم القيميّ يكون في القمة من تنظيم الشخصية"².

وقد اهتمّ علماء النفس والباحثون السيكلوجيون والتربويون كثيرا بموضوع القيم، فوضعوا لها تعاريف متعدّدة بعضها يؤكّد الناحية الشعوريّة، وبعضها يؤكّد الناحية الوجدانيّة، وبعضها الآخر يؤكّد الناحية العمليّة؛ إلّا أنّها جميعا تؤكّد أنّ القيم أحكام يصدرها الفرد على العالم الإنساني والاجتماعيّ والمادّي الذي يحيط به³، وبالتالي فهي ذاتية فرديّة، ومن هذا المنطلق اعتبر علماء النفس موضوع القيم خاصّا بهم، وتناولوه بدراسات عديدة؛ وهذه عيّنة من التعاريف الواردة في بعض من هذه الدراسات:

يذكر أحمد عبد اللطيف وحيد أنّ القيم "تنظيمات عقلية فعّالة تتضمّن أحكاما عقلية وتقويمية إيجابية وسلبية، نحو الأشياء وأوجه النشاط المختلفة، وتكون إما صريحة أو ضمنيّة، نستنتجها من السلوك اللفظي وغير اللفظي"⁴، ويتفق معه عطية محمود هنا أنّ القيم تنظيمات عقلية لإصدار الأحكام ويضيف أنّ هذه الأحكام والتقديرية "امتداد يبدأ بالتقبّل ويمرّ بالتوقّف وينتهي بالرفض"⁵.

1 بشير معمريّة، بحوث ودراسات متخصصة في علم النفس، ج1، منشورات الحبر، الجزائر، 2007، ص43.

2 سعد المغربي، التنمية والقيم، مسلمات ومبادئ، مجلة علم النفس، ع7، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1988م، ص24.

3 سيد محمد خير الله ومصطفى زيدان، القدرات ومقاييسها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص248.

4 أحمد عبد اللطيف وحيد، علم النفس الاجتماعي، دار المسيرة، عمّان، الأردن، 2001، ص67.

5 عطية محمود هنا، التوجيه التربوي والمهني، المطبعة العالمية، القاهرة، مصر، 1959، ص187.

ويرى الباحثان شافير و سترونغ (shaver and strong) أنّ القيم مقاييس ومعايير نحكم من خلالها على أنّ الأشياء جيّدة مرغوب فيها أو على العكس من ذلك سيئة ومرغوب عنها¹.

في حين يرى ماسلو (A. Maslow) أنّ مفهوم القيمة مكافئ لمفهوم الحاجة². ويصرّح كونتريل (Contril) أنّ القيم اتّجاهات³. ويقرّر ثورنديك (E.L. Thorndike) أنّ القيم هي التفضيلات وتنقسم في نظره إلى قسمين:

- قسم إيجابي يجلب اللذة.

- قسم سلبي يجلب الألم⁴.

ويربط يونق (K. Young) القيم بالدوافع والأهداف فيعرّفها بأنها "تركيب من الأفكار والاتّجاهات التي تعطي مقياسا للتفضيل أو أولويّة للدوافع والأهداف، وكذلك لمجرى الفعل من الدافع إلى الهدف"⁵.

ويمنحنا أستاذنا محي الدين مختار (رحمه الله)، تعريفا جامعاً لما مضى فيقول: "القيم عبارة عن تنظيمات عقلية انفعالية معمّمة نحو الأشخاص والأشياء والمعاني وأوجه النشاط، والقيم موضوع الاتّجاهات، كما أنّها تعبير عن دوافع الإنسان، وتمثّل الأشياء التي توجّه رغباتنا واتّجاهاتنا نحوها؛ والقيمة مفهوم مجرد ضمنيّ غالبا، يعبر عن الفضل أو الامتياز"⁶.

1 ماجد زكي الجلاد، تعلّم القيم وتعليمها، تصوّر نظري وتطبيقي لطرائق واستراتيجيات تدريس القيم، دار المسيرة، عمّان، الأردن، 2007، ط2، ص22.

2 المرجع نفسه، ص24.

3 فوزية دياب، المرجع السابق، ص24.

4 نبيل محمد توفيق، المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع، دراسة في علم الاجتماع الإسلامي، دار الشروق، جدة، م، ع، س، 1980، ط1، ص213.

5 محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الثقافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002، ص145.

6 محي الدين مختار، محاضرات في علم النفس الاجتماعي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص196.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الباحثين تناولوا موضوع القيم من خلال مقارنة إسلامية، ويؤكد هؤلاء أن علم النفس قد استفاد كثيرا مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية فيما يتعلق بالدراسات الخاصة بالقيم والاتجاهات¹.

تلك هي نظرة الباحثين السيكلوجيين والتربويين إلى القيم، رأيها باختصار من خلال تعريفاتهم المتباينة، ولابد من الإشارة هنا إلى أن اختلاف نظرتهم إلى القيمة لم تقتصر على موضوع التعريف فحسب بل تعدت ذلك إلى تقسيماتهم إياها، واختلافهم في ثباتها وتغيرها، ومستوى الإلزام فيها، وفي مصادرها، ومدى تأثيرها بثقافة المجتمع، إلّا أنهم أجمعوا أن موضوع القيم نفسي انفعالي بالدرجة الأولى.

لأنها ذاتية فردية، وأنهم أولى بدراستها من غيرهم.

4- القيم في الدراسات السوسيولوجية:

على الرغم من أهمية القيم ومكانتها الجوهرية في الحياة الاجتماعية في كافة ميادين النشاط البشري فقد ظلت لفترة طويلة بعيدة عن رجال العلم من الباحثين في ميادين الدراسات السوسيولوجية، لذا فإننا نلاحظ مثلا أن موسوعة العلوم الاجتماعية لم تشتمل على القيم كمادة مستقلة. ومن الغريب أن نجد عالما سوسيولوجيا من رواد علم الاجتماع وهو ماكس فيبر (M.Viber) يقرب بأن القيم طبيعتها نفسية فيقول: "... هي مجموعة من التصديقات السيكلوجية المتولدة عن الاعتقاد الديني، والممارسة الدينية التي تعطي توجيها للسلوك العملي الذي يلتزم به الفرد"².

يقول أحمد بيومي: "في الحقيقة أنه حديثا فقط جاء استخدام لفظة "قيمة" كمصطلح من المصطلحات السوسيولوجية. و"القيمة" كمفهوم واضح قد استخدمت مبكرا في معان فنية محددة في ميدان علم الاقتصاد... وجدير

1 مساعد بن عبد الله المحيا، المرجع السابق، ص 39.

2 بن منصور اليمين، دور القيم الدينية في التنمية الاجتماعية، دراسة ميدانية حول المزابيين

المقيمين بمدينة باتنة، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الديني، جامعة باتنة،

2010/2009، ص 19.

بالإشارة هنا أنّ بعض علماء الاجتماع قد استعملوا ألفاظاً أخرى مثل: الطرائق الشعبية أو العرف، أو التصوّر الجمعيّ، للإشارة إلى الجوانب الثقافية التي لها صفة التقويم والتي تتطلبها أيّ مجتمع، ويمثل لها أعضاؤه¹.

ويعرّف ريمون بودون (R. Boudon) القيم سوسيولوجيا فيقول: "القيم هي التعبير عن المبادئ العامة والاتجاهات الأساسية، وقبل ذلك عن التفضيلات والاعتقادات الجماعية. تتحدّد الأهداف في المجتمعات ممّا هو مرغوب فيه، وتظهر في المقدّسات الجماعية. هذه القيم المرتبة تنتظم من خلال رؤية خاصّة للعالم ومجموعة متغيرات مستقلّة"².

ولعل السّرّ في إهمال دراسة القيم من جانب الباحثين في ميادين الدراسات الاجتماعية، أنّ الفلسفات العقلية قد جعلت "القيم" من خلال دراساتها عنصراً أساسياً في النسيج الفكريّ المجرد، ونأت بها من عالم الواقع؛ وفي هذا يقول أحد هؤلاء الباحثين وهو جاندي (E.C.Jandy): "كان علماء الاجتماع حتى عهد قريب يعتقدون أنّ دراسة موضوع القيم من شأن الفلاسفة وحدهم، ولذلك لم يعيروها أيّ اهتمام وتركوها للفلاسفة"، ثم يضيف مبدياً سبب ذلك: "وواضح أنّنا (يقصد علماء الاجتماع) مصابون بفوبيا اجتماعيّة من ناحية القيم، سببها الأساسيّ اعتقادنا أنّ القيم لا يمكن أن تكون علميّة بمعنى الكلمة"³.

ويدعم هذا التعليل ليفي شتراوس (L. Strauss) فيقول: "فمردّد ذلك إلى أنّه عندما نتكلّم عن القيم، إنّما نتكلّم عن الانفعالات والعواطف والظواهر غير المنطقية، وبما أنّ أيّ علم مهمّته أن يعبر عن الظاهرة بأسلوب منطقيّ فإنّنا نخشى أن يفضي الكلام علمياً عن القيم إلى التناقض الحادث من تفسير بيانات

1 محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الثقافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002، ص139.

2 Raymond Boudon et autres, **Dictionnaire de sociologie**, Larousse, Paris, France, 2003, p243.

3 فوزية دياب، المرجع السابق، ص17.

غير منطقية بعبارات منطقية، فهذا من شأنه أن يهدم هذه البيانات ويشوّه طبيعة القيم¹.

وأول العلوم الاجتماعية التي التفتت إلى موضوع القيم، وتناولها بالدراسة هي علم الاقتصاد، باعتبار ارتباطه بنظرية القيمة أو الثمن أو السعر، فلقد تعمّق الدارسون الاقتصاديون في تحليلها ودراسة ما يتّصل بها من إشباع للحاجات والرغبات، حتى وُصِف الاقتصاد بأنّه "علم القيمة"؛ وفي هذا يقول هرتزلي (Hertezler) : " إنّ علماء الاقتصاد وحدهم ينفردون من بين العلماء الاجتماعيين بما أولوه من اهتمام جدير بالذكر بدراسة القيم، ولذلك فهم يعدّون بحق رواد دراسة القيم في الميدان الاجتماعيّ، فقد عكفوا منذ قرن مضى على البحث فيها، وفي الدور الأساسي الذي تلعبه في تحديد الأسعار، وفي إنتاج السلع واستهلاكها وتوزيعها"².

• القيمة عند ابن خلدون:

إنّ ما توصّل إليه ابن خلدون - واضع أسس علم الاجتماع أو علم العمران البشري - حول موضوع القيمة يعتبر ذا أهمية كبيرة وجديراً بالبحث والدراسة. يقول في المقدمة: "اعلم أنّ الكسب إنّما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل؛ فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه"³، ويقول أيضاً: "فاعلم أنّ ما يفيد الإنسان ويقنتيه من المتموّلات إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه هو قيمة عمله... فقد تبين أنّ المفادات والمكتسبات كلّها أو أكثرها إنّما هي قيم الأعمال الإنسانية"⁴.

عند تحليلنا لهذه النصّين يتّضح أنّ مفهوم القيمة عند ابن خلدون محصور في مجال الاقتصاد، ويرتكز بشكل أساسي على "العمل"، فهو يربط قيمة المنتجات من سلع وخدمات بالعمل البشري، والكسب الحقيقي هو المحصّل عليه

1 الموضوع نفسه.

2 فوزية دياب، المرجع نفسه، ص 18.

3 عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 2004، ص 348.

4 الموضوع نفسه.

بالعمل المشروع؛ وبهذا يكون ابن خلدون قد منح أهمية كبيرة للعمل، فهو الذي يضيف على الأشياء والمكتسبات قيمتها.

• القيمة عند مدارس علم الاجتماع الحديث:

إذا تتبعنا مدارس علم الاجتماع الحديث المختلفة واهتماماتها المبكرة بموضوع القيم لوجدنا ظهور مفهوم القيمة ضمنا أو صراحة كان ابتداء من المدرسة الفرنسية -مهد علم الاجتماع الحديث- وخاصة عند إميل دوركهايم (E. Durkheim) الذي حدّد مكوّنات الظاهرة الاجتماعية بأنّها نظم اجتماعية لها صفة الضغط والإلزام وتتكوّن من الرموز الاجتماعية والقيم والأفكار؛ وكان يؤكّد على مفهوم الضمير الجمعي في تحديد الضبط داخل المجتمع، وهو من العلماء الذين يعارضون موضوعية القيم فيقول: "لا توجد علاقة تماما بين خصائص الشيء المادية وبين القيمة التي تنسب إليه، فالمعبود -مثلا- قد يكون مجرد قطعة حجر أو خشب لا قيمة لها في حدّ ذاتها، ومع ذلك يشعر القوم نحوها بالتقديس والرغبة... وما طابع البريد إلاّ مربع صغير من الورق الرقيق، ليس فيه في كثير من الأحيان أيّ جمال فني، ومع ذلك ينفق الشخص مالا للحصول عليه، وكيف نفسّر ارتفاع قيمة اللؤلؤ والماس والفراء والدانتيل وغيرها من الملابس وأدوات الزينة؟ لا يمكن أن تكون طبيعة هذه الأشياء وخصائصها الكامنة فيها هي المسؤولة عن ارتفاع قيمتها"¹. لكن لم تظهر دراسات تناولت القيم كموضوع إلاّ بعد وفاته بكثير.

أمّا المدرسة الإنجليزية ومن روادها هيرت سبنسر (H. Spencer) وما طرأ على النظرية العضوية التي تبناها من تغييرات أدّت إلى ظهور نظرية التطور التي تؤمن في أساسها بتعديل نسق التوقعات بين الوحدات، ولو تناولنا هذا المفهوم بالتحليل لوجدنا أنّ تحديد هذه التوقعات يعود بنسبة كبيرة إلى القيم السائدة في المجتمع كما أشار سبنسر إلى ذلك ضمنا؛ وهنا أيضا نلاحظ تأخّر الدراسات المتناولة لموضوع القيم.

1 Emile Durkheim, *Sociologie et philosophie*, Bibliothèque Paul Emil Boulet, Université du Québec, Chicoutimi, Canada, 1911, P7.

وإذا اتَّجهنا إلى المدرسة الألمانية فسنلاحظ أنَّها كانت الأسبق لتناول موضوع القيم بطريقة أكثر وضوحاً؛ فقد كان لها اهتمام صريح بتأثير القيم وتدخلها في تحديد مسار الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وظهر ذلك في بعض أعمال ماكس فيبر و كارل مانهايم (K. Mannheim) مثلاً.

أمّا المدرسة الأمريكية فقد كانت أكثر جرأة في تناولها موضوع القيم بالدراسة، ولناخذ كلا من سوروكين (P. A. Sorokin)

و بارسونز (T. Parsons)، فسوف نجد الأول حاول تأطير بعض التعميمات عن التغير الاجتماعي والثقافي من خلال تاريخ الإنسانية كمؤشر محدد للقيم، وناتج عن التفاعل في إطار ظاهرة اجتماعية ذات أبعاد ثلاثة: - الشخصية - المجتمع - الثقافة؛ وبالتالي نبحث عن القيم من خلال تتبع الأشكال الثقافية، أمّا بارسونز فنجد في نظريته عن الفعل الاجتماعي إقراره على أنَّ الموجهات الدافعية أو القيمية هي إحدى أركان الفعل الاجتماعي، فالقيم كامنة ومحتواة في الأدوار والمواقف أي الإطار المرجعي للفعل¹، ولكنه لا يركّز على القيم كموجهات لفعل الفاعل فحسب، بل هو مهتم بتأثيرها على النسق الاجتماعي ككل، فالقيم بالنسبة له هي: " النماذج المعيارية الموجهة للمرغوب فيه بالنسبة للنسق ككل، مستقلاً عن التخصيص لموقف أو وظيفة معينة داخل النسق"².

ويعتبر الباحثان توماس و زنانيك (Tomas et Znaniecki) من جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة الأمريكية أول من قام بدراسة سوسيولوجية أمبريقية في موضوع القيم بعنوان: "الفلاح البولندي في أوروبا وأمريكا"، وكان ذلك بين 1918م و1920م.

ومنذ ظهور تلك الدراسة أصبح علماء الاجتماع يستخدمون مفهوم القيم استخداماً متزايداً، وسرعان ما أضحت القيم تمثل موضوعاً محبباً لدى علماء الاجتماع إلى درجة أن صاغوا العديد من النظريات السوسيولوجية حولها واعتبروها محدداً رئيساً للسلوك الإنساني ومفتاح فهم الثقافة الإنسانية، كما

1 نويصر بلقاسم، التنمية والتغير في نسق القيم الاجتماعية، رسالة دكتوراه في علم

الاجتماع، جامعة منتوري قسنطينة، 2010/2011، ص 124 - 125.

2 Talcott Parsons, Theories of society- foundations of Modern Sociological Theory, the free press, New York, USA, 1965, p44.

اختلفت تعريفاتهم لها وتباينت، ولكي لا أتية بعيدا في خضم هذه التعريفات لدلالات القيمة أذكر ما سجله حميد خروف الذي يبدو لي أكثر وضوحا ودقة وتبسيطا لمفهوم القيمة حين يعرفها قائلا: " القيم مجموعة من المعتقدات الصريحة أو الضمنية التي تحدث في سياق اجتماعي وثقافي متميز، الأمر الذي يضيف عليها هوية ترتبط بطبيعة البناء الاجتماعي وتحرر ما هو مرغوب فيه أو عنه اجتماعياً، وتتسم القيم بالدينامية والاستمرار النسبي، فتنشأ عن التفاعل بين الأفراد والواقع الاجتماعي المحيط بهم، وتفصح القيمة عن نفسها من خلال التفضيل والاختيار بين البدائل المتاحة وتتحدد في الأنماط السلوكية المختلفة للأفراد وفي اهتماماتهم واتجاهاتهم"¹.

وهكذا انتقل تناول موضوع القيم تدريجيا من الفكر الفلسفي المجرد - بعيدا في عالم المثل- إلى البحث السوسيولوجي في الواقع الاجتماعي، كظاهرة اجتماعية لها علاقة وطيدة بحياة الناس وسلوكهم وتفاعلهم في المجتمع، وتم تناولها بدراسات ميدانية وإحصاءات كمية.

وقد شهدت الجامعات الجزائرية دراسات سوسيولوجية عديدة حول موضوع القيم، خاصة لدى الطلبة الباحثين في مذكرات ورسائل التخرج. وتجدر الإشارة إلى أنّ أول بحث تناول القيم بالدراسة كظاهرة اجتماعية، قدم في جامعة غرداية، كان ذلك الذي قمنا به في إطار مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع التربوي الديني، وكان بعنوان: "التعليم الجامعي والقيم السوسيو دينية للفتاة المزابية" خلال الموسم الجامعي 2011م/2012م.

5- مسار القيم إلى أين؟

إنّ لكلّ مجتمع منظومته القيمية الخاصة به، ومصدر هذه القيم هو ثقافة المجتمع بجميع مكوناتها. وتعتبر القيم بمثابة الجهاز المناعي الذي يحمي هوية المجتمع، ويحافظ على مساره، ويمنحه القوة على الصمود في وجه التغيرات الاجتماعية والتحوّلات الثقافية. فهل القيم لا تزال تحتفظ بتلك القوة

1 حميد خروف، فعالية القيم في العملية التربوية، رؤية سوسيولوجية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، عدد 10، 1998، ص 147 - 148.

والديناميكية في عصر تسارعت فيه وتيرة التغير الاجتماعي وتنامي فيه الاهتمام بالتطور التقني؟

إن كثيرا من الباحثين والفاعلين الاجتماعيين والتربويين يخشون انحطاط كل ما يعطي معنى عميقاً لأعمالنا وأنشطتنا، فتبدو الحياة بذلك غارقة في مادية تخلو من أي روح، وغير قادرة على توجيه أفعالنا ولا تقييم وزناً للتقييم والمعايير.

إن العولمة أنتجت أرضية جديدة تماماً، صارت معها الممارسات الحياتية القديمة قاصرة، تلك الممارسات المرتكزة أساساً على فاعلية القيم وتوجيهاتها التي شكلت إلى حد بعيد بوصلة أخلاقية. هل يعني ذلك أننا نسير نحو عالم يخلو من أي قاعدة سلوكية؟ ومجتمعات فاقدة لمناعتها؟ هل الإنسانية بذلك تسير نحو الهاوية؟ قد نقرأ ونسمع بعض التحاليل تخلص إلى هذه النتيجة "الكارثية"، لكن طرحاً آخر في الاتجاه المقابل يمكن أن يعيد بعض الأمل ويبعث على التفاؤل؛ فهذا الأمين العام السابق لمنظمة اليونسكو كويشوروماتسورا (K. Matsuura) يصرح قائلاً: "... لا أظن ذلك، فالتقييم موجودة دائماً، ويمكننا القول إنه في تاريخ الإنسانية، ومن دون أي شك، لم يكن هناك من القيم بالقدر الذي نشهده اليوم، أليس من أولى نتائج العولمة هو ما كشفت عنه من تنوع الثقافات وتعدد القيم التي كنا نجهلها سابقاً؟ فالغربة في ظاهرة العولمة لا تكمن إذن في غياب وهمي ومتصنع للتقييم... لا توجد أزمة قيم- وعندنا منها الكثير- بقدر ما توجد أزمة في تحديد معنى القيم وفي الاستعداد والأهلية لإدارة شؤوننا، فالمسألة الملحة تتلخص إذن في معرفة كيفية توجيهنا بين القيم¹".

1 كويشوروماتسورا، القيم إلى أين؟، مؤلف جماعي بإدارة جيروم بيندي، تر: زهيدة درويش

جبور، جان جبور، منشورات اليونسكو، قرطاج، تونس، 2005، ص 11 - 12.

الخاتمة -

هكذا تتبّعنا مسار تناول موضوع القيم منذ ميلادها من رحم الفلسفة مجردة في عالم مثاليّ بعيدة عن الواقع، ثمّ تطوّرت دراستها باعتبارها عنصراً أساسياً وفاعلاً في حياة الأفراد والمجتمعات. ولا يزال الاهتمام بها في أطراد حين أضحت انغماسها في كافة مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والأدبية والفنية واضحاً في نتائج البحوث والدراسات المختلفة. فإلى أين تسير بنا القيم في مجتمع أصبح عالمياً من جهة، وتنامت فيه النزعات الثقافية المحلية من جهة أخرى؟

وفيما نحن نتساءل: القيم إلى أين؟ علينا أن لا نتجاهل أسئلة أخرى: ما دورنا نحن؟ ما الذي يمكن أن نصنعه بالقيم على المدى البعيد؟ أليست الحاجة تتزايد لاستشراف المستقبل في وقت فرضت فيه العولمة على المجتمعات منطق "الزمن الواقعي"؟

أ- قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية:

• أولاً الكتب:

- 1- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1972.
- 2- أحمد عبد اللطيف وحيد، علم النفس الاجتماعي، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2001.
- 3- بشير معمري، بحوث ودراسات متخصصة في علم النفس، ج1، منشورات الحبر، الجزائر، 2007.
- 4- زكي نجيب محمود، فلسفة وفن، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، مصر، 1963.
- 5- سيد محمد خير الله ومصطفى زيدان، القدرات ومقاييسها، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، مصر، (د.ت.).
- 6- صلاح قنصرة، نظرية القيم في الفكر المعاصر، دار التنوير، بيروت، لبنان، 1984.
- 7- ضياء زاهر، القيم في العملية التربوية، مؤسسة الخليج العربي، (دم)، 1984.
- 8- عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، 2004.
- 9- عطية محمود هنا، التوجيه التربوي والمهني، المطبعة العالمية، القاهرة، مصر، 1959.
- 10- فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.
- 11- كويشيروماتسورا، القيم إلى أين؟، مؤلف جماعي بإدارة جيروم بيندي، تر: زهيدة درويش جبور، جان جبور، منشورات اليونيسكو، قرطاج، تونس، 2005.
- 12- ماجد زكي الجلاد، تعلّم القيم وتعليمها، تصوّر نظري وتطبيقي لطرائق واستراتيجيات تدريس القيم، ط2، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2007.

- 13- محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الثقافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002.
- 14- محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الثقافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002.
- 15- محمد أحمد على الحاج، فلسفة التربية، ط1، دار المناهج، عمان، الأردن، 2002.
- 16- محمد خير الله ومصطفى زيدان، القدرات ومقاييسها، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، مصر، (د.ت.)
- 17- محمد عماد الدين إسماعيل وآخرون، التنشئة الاجتماعية للطفل في الأسرة العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1982.
- 18- محي الدين مختار، محاضرات في علم النفس الاجتماعي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
- 19- مساعد بن عبد الله المحيا، القيم في المسلسلات التلفازية، دار العاصمة، الرياض، م.ع.س، 1994.
- 20- نبيل محمد توفيق، المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع، دراسة في علم الاجتماع الإسلامي، ط1، دار الشروق، جدة، م.ع.س، 1980.
- ثانيا الدوريات:
- 1- حميد خروف، فعالية القيم في العملية التربوية، رؤية سوسيولوجية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، عدد 10، 1998.
- 2- سعد المغربي، التنمية والقيم، مسلمات ومبادئ، مجلة علم النفس، ع7، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1988.
- ثالثا الوثائق غير المنشورة:
- 1- بن منصور اليمين، دور القيم الدينية في التنمية الاجتماعية، دراسة ميدانية حول المزابيين المقيمين بمدينة باتنة، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الديني، جامعة باتنة، 2010/2009.
- 2- نويصر بلقاسم، التنمية والتغير في نسق القيم الاجتماعية، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة منتوري قسنطينة، 2010/2011.
- ب- قائمة المراجع باللغة الأجنبية -
- 1- Emile Durkheim, **Sociologie et philosophie**, Bibliothèque Paul Emil Boulet, Université du Québec, Chicoutimi, Canada, 1911.
- 2- Raymond Boudon et autres, **Dictionnaire de sociologie**, Larousse, Paris, France, 2003.
- 3- Talcott Parsons, **Theories of society- foundations of Modern Sociological Theory**, the free press, New York, USA, 1965.